

العلاقات الإنسانية في تربية النشء

لدراستازة فحجة سلجانه

عميدة الكلية ورئيسة قسم التربية وعلم النفس

لا أظن أن هناك اختلافا في الرأي في أن مشكلة الانسان في هذا العصر انما هي مشكلة العلاقات الانسانية التي تربط بينه وبين غيره من البشر والتي تربط بين الجماعات والدول المختلفة بعضها وبعض ، ولقد وضحت هذه الحقيقة منذ زمن بعيد على أن الوسائل التي عولجت بها الأمور كانت وسائل مبنية على افتراضات معينة كان العالم يتخذ منها دليلا ورائدا له في تصرفاته حتى وصل العالم الى حالة التوتر التي بلغها الآن والتي تنذر بالانفجار بين الحين والحين . أما هذه الافتراضات فانها مبنية على بعض النظريات العلمية مثل نظرية الصراع في سبيل البقاء اذ أن البقاء للأقوى ، وقد أدى التمشي مع مثل هذه النظريات الى التنافس بين الأفراد والى احتدام النزاع بين الدول والى استغلال القوى للضعيف واستعمار الدول الكبيرة للدول الصغيرة والى استعمال الاكتشاف العلمي وتسخيرها لصناعة الأسلحة الرهيبة التي تهدد الجنس البشري بآبادته وبالقتل على كل ما بلغه من حضارة .

والآن ونحن على حافة الهاوية — هاوية الهلاك للمجتمع الانساني — يجب علينا أن نعيد النظر في اتجاهاتنا نحو تربية النشء بحيث نجد الطرق والوسائل الكفيلة بتنمية علاقات انسانية أفضل بين الصغار وبين المجتمع حولهم حتى يشبوا وقد تخلصوا من شوائب النظريات القديمة التي مجدت القوة والقسوة والصراع وقد تكون هذه وسيلة لتدعيم السلم ونشر المحبة والتسامح بين الناس . على أننا قبل أن نبحث عن طرق تنمية العلاقات الانسانية السليمة في النشء ينبغي أن نبحث عن طبيعة هذه العلاقات وعن الأسس البيولوجية والسيكولوجية التي يمكن أن توجهنا الوجهة العلمية السليمة كما يكون تفكيرنا مرسوما وهاذفا .

أنا ان حاولنا اليوم أن نجد قيما جديدة للسلوك الاجتماعى ودوافعه واتجاهاته وأساليب تكوين العلاقات بين الناس ، فاتنا لن نكون مجددين فى هذا الميدان ، فقد حاول العلماء والمفكرون - منذ أقدم العصور - ايجاد الأسس التى ينبغى أن تبنى عليها العلاقات بين الأفراد التى تفسر السلوك الاجتماعى . فقد ذكر أفلاطون الفيلسوف اليونانى القديم فى كتابه المسمى « الجمهورية » رأيه عن علاقة الفرد بالمجتمع وعن علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض وكيفية تنظيم هذه العلاقات بحيث تستكمل العدالة فى المجتمع ، ويصبح مجتمعا فاضلا لا شروق فيه ولا ظلم ، وتبع أفلاطون غيره من الكتاب والمفكرين محاولين سبر غور السلوك الاجتماعى كى يتمكنوا من وضع نظام للعلاقات الانسانية تتفق ، وما ينادون به من مذهب فلسفى أو اتجاه علمى .

فى عصر النهضة نجد « توماس هوبز » Thomas Hobbs يفسر السلوك الاجتماعى والعلاقات الانسانية على أساس مادى قوامه الأناية وحب الذات ، وذلك لأن « هوبز » رأى أن دوافع الانسان الجسمية وخوفه ورغبته فى التعالى وهروبه من الألم ، كل هذه رآها أسسا تحدد العلاقات بين الأفراد ، وأن المجتمع البشرى لم يجتمع أفراده الا لاشباع حاجاتهم الفردية ، أو لتجنب الأخطار التى تحيط بهم .

وجاء بعد ذلك «جان چاك روسو» فى القرن الثامن عشر بفكرته التى بينها فى كتابه « اميل » والتى توضح عقيدته فى أصالة الخير فى طبيعة الانسان ، ذلك الخير الذى ينبغى أن يسان ويحفظ ، وذلك بمنع الصغير من الاختلاط بالناس ، وهكذا نادى روسو بتربية الصغير فى معزل عن المجتمع وبعيدا عن مؤثرات السوء الموجودة فى البيئة الاجتماعية ، فألقى بذلك العلاقات الانسانية من حياة الصغير حتى لا تتلوث طبيعته الخيرة بشروق المجتمع .

وأتى القرن التاسع عشر بعدد من المفكرين والعلماء يعتبر أكبرهم خطرا من ناحية بحثنا هذا - « تشارلز داروين » C. Darwin اذ كان لنظريته العلمية الشهيرة أعمق الأثر فى توجيه الفكر الانسانى وتعريفه بأصل الانسان بصفة عامة ، وبطريقة سلوكه بصفة خاصة ، ذلك لأن نظرية «داروين» المعروفة والتى قالت بأن الانسان - الذى هو أرقى أنواع الحيوان وأعلاها فى سلم التطور - لا يفهم

سلوكه الا اذا قورن بسلوك الكائنات الأخرى . وقارن « داروين » بين الفرائز في الحيوانات وبينها في الانسان مينا أوجه التشابه . ومن أهم ما جاء في كتابه المسى « أصل الأنواع » Origin of the Species الفقرة التالية :

« ان الصراع في سبيل الحياة ذلك الصراع الذى يتميز به سلوك جميع الكائنات الحية في هذا العالم ، لا بد من وجوده بسبب زيادة اعداد هذه الكائنات زيادة بنسبة المتواليات الهندسية . ان كل نوع من الكائنات الحية يتكاثر بأعداد كبيرة يعجز الكثير منها عن البقاء ، ولهذا فان هناك صراعا يكاد يكون دائما في سبيل الحياة . فاذا اختلف كائن من الكائنات عن غيره بأن اختص بميزة أو صفة تزوده بما يفيد في ظروف الحياة المعقدة والمتغيرة ، فان هذا الكائن سوف يحظى بفرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة ، وهكذا يصبح نوعا منتقى بطبيعته . ولما كان للوراثة أثر كبير في نقل صفات الكائنات من جيل الى آخر فان هذا النوع المنتقى سوف يولد كائنات من نفس نوعه المنتقى ذى الصفات المميزة » .

وكان لآراء « داروين » هذه — أى فكرته عن كون البقاء للأصلح ، والأصلح عنده هو الأكثر قدرة على الصراع والاحتمال — كان لها أثر بالغ في شتى نواحي الحياة والمعرفة . وجاء بعده « توماس هكسلى » Thomas Huxley بكتابه المسى « الصراع في سبيل الحياة وأثره على الانسان » الذى ظهر عام ١٨٨٨ ، وقد ذكر فيه أن دنيا الحيوان تشبه ساحة لمصارعة الحيوانات اذ أن الكائنات الحية تعامل معاملة لا بأس بها فتطعم وتربى ثم تحفز على الصراع فيما بينها ، ذلك الصراع الذى يؤدى الى غلبة الكائن الأسرع والأكثر دهاء ، فيبقى حيا ليصارع في اليوم التالى :

وكان لمثل هذه الآراء — عند تطبيقها في عالم الانسان — مغزى خطير ، فان الصراع البيولوجى بين الكائنات الحية يمكن أن يترجم الى التنافس بين الأفراد في المجتمع الواحد ، والى الصراع والحروب بين الدول بعضها وبعض ، ويمكن ترجمته أيضا الى معنى أخطر وهو استغلال الشعوب القوية للشعوب الضعيفة ، هذا المعنى الذى هو حجر الزاوية في البناء الاستعمارى .

ويمكن القول ان هذه الفلسفة حتى الآن هى التى لا تزال تسيطر على مجتمعا الانسانى ، فكل واحد لنفسه ، واذا لزم الأمر فانه لنفسه وعلى أعدائه ، فالبقاء

للاقوى وللاكثر قدرة على الصراع . لذا تسابق الأفراد على التنافس والمنازلة في جميع ميادين الحياة . وتسابقت الشعوب والدول للوصول الى القوة عن طريق التسليح والتكتل فتكونت الأحلاف والمنظمات ، وصنعت القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة والأقمار الصناعية ودبرت المؤامرات الدولية لمنع الشعوب المستعبدة من الخلاص والتحرر من الاستعمار والاستغلال .

ان هذه النظرية القاسية التي تحددت على ضوءها معظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، والتي بنيت على نظرية « داروين » البيولوجية لاشك أنها نظرية خاطئة . ان الحقائق البيولوجية تفسر لنا بعض أوجه السلوك الانساني ، الا أن هذه الحقائق - كما نعرفها اليوم ، وكما كشفت عنها أحدث التجارب العلمية - قد بينت لنا نواحي أخرى في سلوك الكائنات الحية لم يبرزها « داروين » في كتاباته الأولى الا أنه ذكر بطريقة عابرة في كتابه المسمى *The Descent of Man* ناحية من هذه الحقائق اذ يقول « وكلما تقدم الانسان في طريق الحضارة ، وتجمعت العنصر مكونة جماعات كبيرة فان أبسط مفهوم لهذه التجمعات يدل على أنه في مقدور كل فرد أن يوسع نطاق غريزته الاجتماعية ، فتشمل أفراد المجتمع الأكبر - الذين هم أبناء الوطن الواحد - بالعطف والمحبة ولو أن هذه القدرة قد تكون خافية على الفرد نفسه . فاذا كان هذا ممكنا فان الحوارج والموانع التي تحول بين الفرد وباقي أبناء الجنس البشرى على الاطلاق تكون موانع زائفة ومصطنعة » .

من هذه العبارة يتضح أن « داروين » فطن الى وجود ظاهرة مهمة تميز السلوك الانساني ، وهي ظاهرة حب التجمع التي اعتبرها طبيعية ، وفي مقدور الأفراد .

ان في نشاط الكائن الحي نواحي كثيرة تبين أنه لا بد له من أن يصارع ويناضل في سبيل البقاء ، الا أن هذه النواحي لا تمثل كل أنواع النشاط التي تميز السلوك العام للكائن الحي . ان سلوك هذا الكائن - في الواقع - يظهر أن للتعاون بين الكائنات الحية أهمية لا تقل عن أهمية التنافس بينها والصراع في سبيل البقاء وان هاتين الظاهرتين التنافس والتعاون لا تتناقضان بل تكملان بعضهما البعض . ان علماء القرن التاسع عشر وعلى الأخص علماء الاجتماع مثل

هربت سبسر وأتباعه — أهملوا ظاهرة التعاون في سلوك الانسان وتجاهلوهما ولم يبرزوا الا ظاهرة الصراع والنضال في سبيل البقاء .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت عدة مقالات علمية للأمير « بطرس كروبوتكين » Prince Petr Kropotkin جمعها عام ١٩٠٢ في كتاب أسماه « التعاون المتبادل كعامل في التطور » *Mutual Aid, a Factor in Evolution* وفي هذه المقالات حاول « كروبوتكين » أن يبين أن هناك قوة لا شعورية تعمل في عالم الكائنات الحية ، وأن هذه القوة تتضح في تبادل المنفعة بين هذه الكائنات ذلك التبادل الذي يساعد الكائنات على الحصول على فرص أكبر للبقاء ، وأن الكائنات تدرك أدراكا — ولو غامضا — أن سعادة الأفراد مرتبطة بسعادة الجماعات ، وأنه اذا كان للفرد حقوق فان للآخرين حقوق أيضا . وقد كانت مقالات « كروبوتكين » هذه عبارة عن أضواء سلطت على ظاهرة التعاون في حياة الكائنات الحية فلم يكذب يتنصف القرن الحالى حتى بلورت البحوث العلمية المختلفة التى أجريت في مملكة الحيوان — بلورت أهمية ظاهرة التعاون بين الأفراد وفائدتها كعامل مساعد على البقاء سواء للأفراد أو للجماعات .

ففى أبسط أنواع الكائنات الحية — وهى الحيوانات وحيدة الخلية — لوحظ ان التكاثر يحدث بالانقسام المباشر للخلية فتصبح الخلية خليتين وهكذا . وقد يحدث التكاثر بأن تنقسم بعض الخلايا الى عدد كبير من الخلايا الصغيرة (الجاميطات) التى يتجمع كل اثنين منها فيلتصقان ويندجان فتكون خلية واحدة (الزيجوت) وهذا هو أبسط أنواع التكاثر الجنسي . وفيما بعد يبدأ الزيجوت فى التكاثر بالانقسام المباشر لخلية الزيجوت .

وسواء أكان التكاثر بالانقسام المباشر أو بتزاوج الجاميطات فان العملية — أى عملية التكاثر — هى عبارة عن عملية تفاعل بين الخلية الأم والخلية الجديدة أى الوليدة المكونة للكائن الحى الجديد . فالخلية الأم هى التى تمد الخلية الوليدة بالمادة الحية كما أنه — أثناء عملية انقسام الخلية — تحدث عدة عمليات بنائية وأخرى فسيولوجية فى بروتوبلازم الخلية قبل أن تنفصل الخلية الجديدة من الخلية الأصلية لتصبح كل منهما مستقلة عن الأخرى . وهذه الظاهرة

— أى ظاهرة الاتصال الحيوى — بين الخلية الأصلية (الأم) والكائن الجديد (الخلية الوليدة) هى الطابع المميز لعملية التوالد فى الكائنات الحية .

يقول الدكتور « آشلى مونتاجيو » ^(١) Ashley Montagu فى كتابه عن « صفات البشر » ان الطابع الاجتماعى الذى يميز الكائنات الحية على الاطلاق تمتد جذوره الى العلاقة الفسيولوجية التى تربط بين الأم والكائن الوليد ، وذلك لأن الأم والوليد يكونان متصلين اتصالا حيويا فترة من الزمن ، وأز حياة أحدهما تترتب على حياة الآخر أثناء هذه الفترة ، وعلى ذلك فان ظاهرة التوالد يمكن أن تعتبر أساسا للعلاقات الجماعية فى مملكة الحيوان والتى تسمى بالعلاقات الانسانية فى عالم الانسان ، هذه العلاقات المبنية على التكافل والتعاون بين الأفراد ، والتى تتمثل — فى أبسط أطوارها — فى العلاقة الفسيولوجية بين الخلية الأصلية (الأم) والخلية الجديدة (الوليد) المتكونة من الانقسام المباشر للخلية الأصلية . على أنه كلما تقدمت الحيوانات فى سلم التطور فان فترة هذه العلاقة الفسيولوجية بين الأم والوليد تطول فتصل فى حالة الانسان الى تسعة شهور كما أن فترة طفولة الانسان — تلك الفترة التى يكون فيها الطفل معتمدا على أمه اعتمادا تاما — فى أول الأمر — ثم جزئيا — فى السنوات التالية — هى أطول فترات الطفولة فى عالم الحيوان ، وتزداد هذه الفترة أو تقل أيضا وفقا لما بلغ المجتمع الذى يوجد به الطفل من حضارة تسبب فى تعقيد الحياة وتعقيد العلاقات الانسانية معها .

وعلى ذلك فان أصل الميل نحو التجمع الذى يميز الكائنات الحية يمكن ربطه بالطريقة التى ينشأ بوساطتها الكائن الحى . ان كل خلية تنشأ من خلية أخرى ولا يمكن أن تنشأ الا بهذه الطريقة ، وكيفما كانت طريقة التوالد — سواء أكانت بالانقسام الخلوى البسيط المباشر أو بتزاوج الجاميطات — فان العملية فى كلتا الحالتين عملية اعتماد متبادل وتكافل بين الأم والجنين . والاعتماد المتبادل والتكافل شرطان لا غنى عنهما فى الحياة .

ان كل خلية فى جسم الكائن الحى تعتمد فى عملياتها الحيوية على الخلايا الأخرى المكونة للكائن الحى ، أى أن الكائن الحى يعمل كوحدة وليس

Ashley Montagu, on Being Human p. 29. (١)

كجموعة من الخلايا المستقلة ، فهو وحده لأنه يحين بطريقة التعاون الخلوى القائم فيه . وبالإضافة الى هذا فانه لا يوجد كائن حى منفرد أو مستقل بنفسه (من الناحية البيولوجية) فى نشأته ، كما أنه لا يوجد كائن حى يعيش بمفرده اللهم الا فى حالات نادرة . وكما جاء فى كتابات العالم « و.م. ويلر »^(١) W. M. Wheeler اتنا نجد أن الكائنات الحية — نباتية كانت أو حيوانية — تعيش عادة عيشة تجمعية فى قطمان أو مستعمرات أو جماعات ويندر أن توجد كائنات تعيش معيشة انفرادية ، وان وجدت فانها تعتبر غير طبيعية بالرغم من أن انفرادها قد يكون بسبب الأخطار التى قد تتعرض لها لو عاشت وسط الجماعات .

ولقد دلت البحوث التى أجريت فى نصف القرن الأخير تقريبا على الطبيعة الجماعية للأحياء على اختلاف مرتبتهم فى سلم التطور على أن للأحياء ميلا اجتماعيا فطريا فمثلا فى عام ١٨٩٤ وجد العالم « وليام روكس » William Roux المتخصص فى علم الأجنة أنه عند ما فرق خلايا بيضة الضفدع — وهى فى أولى مراحل نموها — وباعد بين هذه الخلايا فى الماء ، وجد أنها أخذت تتقارب من بعضها شيئا فشيئا حتى تم التلاصق بينها . كذلك فان تجربة أخرى على بعض يرقات الفراش بينت أنه اذا بوعد بين يرقة واحدة وبين مجموعة من اليرقات فان اليرقة المنفردة تسعى بنشاط الى صحبة اليرقات الأخرى .

وفى عالم البكتيريا وجد « تاكستر » Thaxter عام ١٨٩٢ أن تعاون هذه الكائنات الدقيقة وحيدة الخلية واضح ومنظم ، ففى نوع من أنواعها يسمى « الميكسوباكثيريا » لاحظ تعاون الخلايا تعاوننا يهدف الى توزيع العمل فيما بينها ، اذ وجد أن بعض الخلايا يلتصق ببعض مادة لزجة لتكوين عنق وتوجد مجموعة من خلايا بكتيرية أخرى يلتصق بعضها ببعض أيضا وتكون كتلة تختص بعملية التكاثر .

هذه هى بعض الأمثلة القليلة التى توضح ميل الكائنات الحية الطبيعى للتجمع الذى أسماه بعض العلماء بغيرزة التجمع ، والذى يشاهد فى الكائنات الحية على اختلاف طبقاتها .

(١) W. M. Wheeler, The Social life of Insects.

ان ظاهرة الميل للتجمع هذه تفسر لنا نشأة الكائن الحى المتعدد الخلايا من الكائن وحيد الخلية ، فان دوافع الكائنات الوحيدة الخلية نحو التجمع قد تكون السبب فى دوام تلاصق عدد منها بعد تكاثرها بالانقسام وعدم انفصال الخلايا الجديدة من الخلايا الأصلية (كما سبق أن ذكر فى وصف التوالد البسيط لهذه الكائنات) وبالتدرج زاد تبادل النشاط الفسيولوجى بينها فتكونت الأنسجة المختلفة التى اختص كل منها بوظيفة وتبادلت هذه الأنسجة النفع فيما بينها أيضا فتكون بذلك الكائن المتعدد الأنسجة والخلايا . وعلى نفس النمط نجد أن أى تجمع حيوانى أو أى مجتمع انساني قد تكون بطريق أو آخر ضمن تبادل المنافع والتكافل بين أفرادها أو مجموعاته .

ولقد جاء فى مؤلفات كثيرة للعالم « و.س.ألى » (١) W. C. Allee ما يبرهن على أن فى تجمع الكائنات الحية فائدة حيوية لها ، اذ أن فرصها فى البقاء حية تزداد وهى متجمعة عما هى فى حالة انفرادها . ويذكر العالم على سبيل المثال أن تجربة أجريت على نوع من الديدان البحرية ، عرض بعضها وهى متجمعة وبعضها وهى منفردة للأشعة فوق البنفسجية ، فكانت نسبة الهلاك فى الديدان المتجمعة أقل منها بكثير فى الديدان المنفردة . كما ذكر نفس العالم أن تجربة أخرى أجريت على بعض أسماك الزينة فوضعت مجموعات منها فى محلول سام ووضع بعضها منفردا فى أوان أخرى تحوى نفس المحلول فهلكت الأسماك المنفردة أما الأسماك المتجمعة فلم تهلك كلها بل نجا بعضها . وذكر أيضا أنه فى أبحاثه الخاصة على القنفاذ البحرية وجد أنه كلما كان بيض القنفاذ متكاثرا فى مجموعات زادت سرعة نموه ، وكلما بوعد بين البيض قلت سرعة نموه . أما تجاربه على بعض أنواع النورس ، وهو طير بحرى يعيش فى جماعات فانها برهنت على أنه كلما ازدادت أعداد الطير فى الجماعات فان نسبة التوالد فيها تكون أسرع منها فى الجماعات التى يقل عدد أفرادها .

W. C. Allee, (a) Animal Aggression.

(١)

(b) The Social Life of Animals.

(c) Principle of Animal Ecology.

من كل ما سبق يمكن استخلاص عدد من الحقائق أهمها :

أولا — ان الكائنات الحية — حتى أصغرها وأبسطها تركيبا — تحيا عادة حياة جماعية أو اجتماعية (في حالة الانسان) ، وأنه لا يوجد أى نوع من أنواع الحيوان — على اختلاف مراتبه — يحيا منفردا الا اذا كان في اجتماعه بالحيوانات الأخرى ما يجلب له الخطر .

ثانيا — ان الحياة الاجتماعية تكسب الحيوانات المتجمعة فوائد حيوية هامة ، وخصوصا من ناحية اكساب هذه الحيوانات فرصا أكبر للبقاء .

ثالثا — ان أهم ظاهرة تميز الحياة الجماعية في مملكة الحيوان ليست ظاهرة الصراع والنضال في سبيل البقاء بل ظاهره التعاون في سبيل البقاء .

رابعا — ان الحياة الجماعية في مملكة الحيوان معاصرة للحياة نفسها ، فقد بدأت الحياة الجماعية مع بدء الحياة في هذا العالم .

خامسا — ان الحياة الجماعية في مملكة الحيوان تمتد جذورها الى الدوافع العضوية والعلاقات الحيوية التي تربط بين الأم والجنين أثناء عملية التوالد ، وان لهذه الظاهرة مغزى هاما ، فعملية التوالد التي تخلق بوساطتها الأحياء ، هي الأساس الذي تستند عليه العلاقات الجماعية في الأحياء .

والمجتمع الانساني هو أسمى أنواع التجمعات في مملكة الحيوان ، وانما يمتاز هذا المجتمع بالعقل البشرى باستعداداته وبمروته وقابليته الهائلة للتعلم ، وبتخلصه من السلوك الحيوى الجامد . ولأن الانسان هو أرقى الحيوانات جميعا فان له حاجات أساسية (كما للأحياء الأخرى) لا غنى عنها لحياته كالتنفس والغذاء والايخراج والتوالد ، كما أن له حاجات أخرى لا بد من حصوله عليها كي ينمو نموا طبيعيا ، كحاجته الى الاتصال بالناس وحاجته الى الاعتماد على الغير .

والطفل عند ولادته يكون مزودا بدوافع غريزية تجعله يشعر بالحاجة الى حب أمه له وعنايتها به ، وتعتبر عملية اشباع حاجته الى حب أمه من أهم عمليات

التعاون بين الأحياء . يقول الأستاذ « آدلر »^(١) A. Adler في بعض كتاباته ان أول عملية نشاط يقوم بها الطفل الحديث الولادة هي الرضاعة من ثدى أمه ، وان في هذا النشاط لمتعة لكل من الأم والطفل على حد سواء لأنه مصحوب بشعور لطيف ومحجب لكل منهما .

من كل ما تقدم يتضح أن الأم هي أول فرد يتصل به الوليد ويتعاون معه سواء في أثناء الحمل أو بعد الميلاد ، لذلك فان للأم أكبر الأثر في بدء تكوين العلاقات الانسانية بين الطفل والمجتمع حوله ، وان في يدها تقوية هذه العلاقات — وهي في أول مراحل تكوينها — أو اضعافها ، وذلك يترتب على المساعدة والعناية التي تمنحها للطفل الذي لا يملك من أمره شيئا والذي يحتاج حاجة عزيزية الى محبتها وعطفها . فاذا فشلت الدوافع العزيزية للطفل في الحصول على الحب والحنان من أمه (أو ممن يقوم مقامها اذا لم تكن موجودة) فان هذا الفشل يكون سببا لا في شعور الطفل بالاضطراب وعدم الاستقرار فحسب ، بل قد يتسبب هذا الفشل أيضا في اضطرابات عملية الهضم عند الطفل . ولقد وجد أن الطفل الذي يبكى ويترك دون أن يستجيب أحد لبكائه فان التوتر العصبى الذى يصيبه كثيرا ما يسبب اصابة الطفل بمرض الربو^(٢) . هذا وقد ثبت علميا أن عددا كبيرا من الأمراض العضوية يرجع سببها الى اضطرابات عصبية تكون قد حدثت في السنوات الست الأولى من حياة الصغير .

ومهما نقل عن أهمية الحب والحنان في حياة الطفل في تنمية علاقاته الاجتماعية فانا لا نوفي هذه الأهمية حقها ، وقد تبين هذه الأهمية اذا نحن استعرضنا الموضوع الآتى^(٣) :—

انه حتى منتصف القرن الأخير كانت احصاءات الوفيات في الأطفال تدل على أن ما يقرب من حوالى نصف عدد المواليد في العالم يموتون في السنة الأولى بعد ولادتهم ، وأن موت الأطفال في هذه السن كان يرجع في غالبية الأحيان الى مرض كان يسمى «مرض الهزال» Marasmus . فلما قام الباحثون بتجاربيهم لاكتشاف

(١) A. Adler, Social Interest : A challenge to Mankind.

(٢) F. Alexander Psychogenic factors in Bronchial Asthma Part I, Psychomatic Medicine Monograph IV, 1941 p. 58.

(٣) Ruth M. Backwin & H. Backwin Psychologic Care During Infancy and Childhood.

سر هذا المرض الخطير وجد أن أكثر الأطفال إصابة به هم أبناء أغنى الطبقات والأطفال في المستشفيات والمؤسسات كاللقطاء واليتامى ، أى الأطفال الذين يحصلون عادة على أوفر قسط من العناية الصحية ، بينما وجد أن أطفال الطبقات الفقيرة التى تقوم أمهاتهم بتربيتهم بأنفسهن يكونون أكثر قدرة على مقاومة مرض الهزال بالرغم من الظروف غير الصحية التى يعيشون فيها . وهكذا استنتج الباحثون أن حنان الأم وعطفها — الذى يحرم منه أبناء الطبقات الثرية لتعهد الخادومات بتربيتهم ، والذى يحرم منه اللقطاء واليتامى ، والذى يتمتع به أبناء الطبقات الوسطى والفقيرة — هو العامل الذى يسبب فقده ووقوع الطفل فريسة لمرض الهزال .

وكان اكتشاف هذه الحقيقة سببا فى أن معظم مستشفيات العالم المتحضر ومؤسسات الطفولة فيه تحاول أن تعيد الأطفال الى أمهاتهم ، وفى حالة عدم وجودهن يعطى الأطفال لحاضنات يقمن مقام الأم . ولقد جاء فى كتاب الدكتورة « روث باكوين »^(١) وزوجها وهما من مشاهير أطباء الأطفال الأمريكيين — عن العناية بالنواحي السيكولوجية فى تربية الأطفال — جاء ما يفيد بأن إقامة الأطفال بالمستشفيات وما فى حكمها من مؤسسات للأطفال اليتامى واللقطاء وأبناء النساء العاملات ، هذه الإقامة لفترة طويلة تسبب أعراضا طيبة واضحة تظهر على هؤلاء الأطفال ، ومن أهم هذه الأعراض عدم قدرتهم على النمو السليم بالرغم من تناولهم الأغذية التى تكفل النمو السليم للأطفال المقيمين فى منازلهم ، وعدم قدرتهم على النوم العميق لفترات طويلة كافية ، كما أنه لوحظ أن هؤلاء الأطفال قلما يتسمون أو يصدرن الأصوات التى يصدرها الصغار فى الشهور الأولى من حياتهم (المناعة) . أما شهيتهم للطعام فهى فاترة ويأكلون غذاءهم دون اهتمام به ، وكثيرا ما يصاب الأطفال بنزلات البرد التى تصاحبهم أسابيع وشهورا بينما تزول عن الأطفال المقيمين فى منازلهم فى ظرف يوم أو يومين . ولقد لوحظ أنه بمجرد عودة هؤلاء الأطفال الى منازلهم أو الى حاضنات يقمن مقام الأمهات تتحسن حالتهم الصحية بسرعة عجيبة .

Ruth M. Backwin & H. Backwin Psychologic Care During Infancy and Child-hood. (١)

هذا كما أن حرمان الطفل من أمه في الفترة التي تعقب ولادته وحرمانه بالتالي من حبا ورعايتها تسبب أضرارا كبيرة لا بصحة الطفل الجسمية فحسب بل بصحته النفسية أيضا، وتدل أبحاث العلماء في هذا الصدد على أن هؤلاء الأطفال المحرومين — كأطفال المؤسسات والمستشفيات — يتصفون عادة بشخصية انفرادية تتميز بسلوك أناني عدواني تجاه المجتمع ، كما أن هؤلاء الأطفال يجدون صعوبة كبيرة في تقبل الحب والعطف وتبادله مع أفراد المجتمع ، هذا بالإضافة الى شعورهم دائما بعدم الاطمئنان والى تصرفاتهم العشوائية العدمية الهدف والغاية . وبالاختصار فان هؤلاء الأطفال غير قادرين على تكوين علاقات انسانية سليمة مع أفراد المجتمع حولهم . يقول الأستاذ « و. جولد فارب » (١) Goldfarb ان جميع العلاقات العائلية بشتى اتجاهاتها لا وجود لها عند طفل الملاجيء والمؤسسات ، لأن طفل الملاجيء لا يكون أية علاقات اجتماعية مع الناس . ولذا فان تكوين شخصيته يكون غير متكامل . ولقد اهتمت الهيئات الدولية بدراسة السلوك الاجتماعي للأطفال الذين يربون في المؤسسات ، فقامت هيئة الصحة العالمية بإجراء عدد من التجارب تحت اشراف « ج . بولى » (٢) J. Bowlby على مجموعات من أطفال دول أوروبا والولايات المتحدة دلت كلها على أن أهم دعائم الصحة النفسية عند الصغار هي تبادل علاقة الحب والعطف مع أمهاتهم في السنوات الأولى من حياتهم . وهكذا فان غالبية هذه الدول الآن تسعى الى استعاضة المؤسسات والملاجيء التى يربى فيها الصغار اليتامى واللقطاء بيوت تشبه بيوت الأسر يعيش فى كل منها عدد صغير من هؤلاء الأطفال مع أم (بالتبنى) أو حاضنة ، وسيدات أخريات يمثلن الأقارب ، ويعيش الأطفال معيشة شبيهة بالمعيشة العائلية ، فيذهبون الى المدارس العامة ويعودون الى بيوتهم كما يعود الأطفال الآخرون . وهكذا تحاول هذه الدول تربية هؤلاء الصغار فى أجواء تشبه بقدر المستطاع الأجواء العائلية العامة .

(١) William Goldfarb, (a) «The Effects of Early Institutional care on Adolescent Personality», Journal of Experimental Education, Vol. 12, 1943 p. p. 106—129.

(b) Psychological Privation in Infancy & Subsequent Adjustment, American Journal of Orthopsychiatry, vol 15, 1945, p. 254.

J. Bowlby, Maternal care & Mental Health. (٢)

ان الاعتماد المتبادل أو التكافل الذى يحدث أثناء الاتصال الفسيولوجى بين الأم والجنين قبل ميلاد الطفل ، والذى تكون حياة كل منهما معتمدة فيه على حياة الآخر — هذا التكافل الفسيولوجى يترجم فى حياة الفرد الى تكافل بين الفرد والمجتمع يبدأ بتكافل بين الجنين والأم فى السنوات الأولى لحياته ، وأن الانسان يجد فى هذا التكافل معنى لحياته ولعلاقاته مع الآخرين ، فاذا أهمل الطفل الوليد ولم يعن أحد بأمره فانه يذبل ويموت ، واذا أهمل الفرد ولم يعن أحد فى المجتمع بأمره فان شعوره نحو الناس يفتر وتموت فيه ميوله الاجتماعية كما تمرض نفسه وقد ينتهى به الأمر الى الموت ، وقد قال « اريك فروم » (١) Eric From « انه اذا لم يشعر الشخص بأنه يتسمى الى جماعة ، واذا لم يشعر بأن لحياته معنى وهدفا فانه سوف يشعر كأنه ذرة من تراب ، وسوف يقضى عليه شعوره بعدم جدواه . ان مثل هذا الشخص لا يمكنه أن يتسمى مع أى نظام اجتماعى يبرز معنى واتجاها لحياته ، وسوف تنتابه الشكوك التى تصيب قدرته على النشاط بالشلل ، وسوف يفتنى فى النهاية » .

ويقول أ. أدلر (٢) A. Adler فى هذا الصدد أيضا ، «ان النمو الطبيعى للفرد لا يمكن أن يحدث الا اذا عاش الفرد وكافح كجزء من كل (يعنى المجتمع) ... ويمكننى أن أذهب الى أبعد من هذا لأبين أن جميع وظائفنا الحيوية مهيأة بشكل يربط الفرد والمجتمع ... فعلمية الابصار عملية استقبال العين لكل ما يسقط من صور على شبكتها حتم تتم الرؤية ، ثم ترجمة هذه الصور الى أشياء يدركها العقل ويفيد منها ، هذه العملية ليست عملية فسيولوجية محضة ، بل انها عملية تبين أن الفرد جزء من الكل وأنه يأخذ ويعطى ... والابصار والسمع والكلام عمليات كلها تتطلب الربط بين الأفراد . ان جميع وظائفنا الجسمية والعقلية لا تتم ولا تنمو نموا سليما وصحيحا الا اذا كان ذلك فى جو اجتماعى مبنى على التعاون ... واتنا اذا تكلمنا عن الفضيلة فالتنا نعنى أن الفرد يؤدي ما عليه للمجتمع ، واذا تكلمنا عن الرذيلة فالتنا نعنى أن الفرد لا يؤدي ما عليه للمجتمع وأنه يعارض التعاون مع أفراده . ان ميلاد الانسانية لم يكن ممكنا الا بفضل

(١) Eric From, Escape From Freedom, p.p. 21—22.

(٢) A. Adler, Social Interest.

الطبيعة الاجتماعية للجنس البشري . وكما وضع العالم « و . جولد »^(١) في كتاباته أن الوحدة الأساسية للسلوك الاجتماعى ليست للفرد بل للجماعة ، فإن الطفل يولد بمجموعة من الاستعدادات الفطرية والحاجات ، أما الذات الشعورية « الـ Ego » فإنها تكون نفسها من احتكاك الصغير بالعالم الواقعى الخارجى والذوات الشعورية الأخرى للأفراد حوله ، التى تكيف استعداداته وحاجاته . ان السلوك التعاونى عند الطفل الحديث الولادة — كما سبق أن تبين — سلوك طبيعى ، وأن لهذا السلوك التعاونى أهمية أكبر وأعمق أثرا فى حياة الطفل من السلوك التنافسى . ان السلوك التنافسى — كما تقول « شارلوت بوهرلر »^(٢) G. Buhler — لا يظهر فى الطفل الا ابتداء من السنة الثالثة من عمره ، وان هذا السلوك الذى يتسم بالعداء يزداد كلما كبر الطفل . وهذا السلوك العدائى — فى رأى كثير من الباحثين فى ميدان علم نفس الطفولة — هو عقدة نفسية تكونت للطفل نتيجة للحرمان أو الاخفاق اللذين قد يتعرض لهما الطفل فيسببان التناقض فى بناء شخصيته^(٣) .

ان الطفل يتعلم بالتدريج أنه اذا أراد أن تجاب رغباته وتشبع حاجاته فلا بد أن يحرص على اجابة رغبات الآخرين وتلبية طلباتهم . واذا أراد أن يكون محبوبا وأن تجاب مطالبه فعليه أن يحب من حوله ويتعاون معهم ، وهكذا بالتدريج يبنى الطفل علاقته مع من حوله ، تلك العلاقات التى تبدأ بالمحبة بينه وبين أمه والتى تشعره بأنه فى مأمن وأنه يتنى الى أمه ، وعن طريق المحبة والتعاطف أيضا بينه وبين أفراد أسرته يشعر باطمئنان أوسع لأنه يتنى الى أسرة لها عليه حقوق وله عليها حقوق ، يجب أن يقوم بأدائها كل منهما حتى تظل العلاقات الطيبة قائمة بينه وبينها ، فاذا ما بدأ يخرج عن نطاق الأسرة الى نطاق المجتمع فانه يحصل على حب أفرادهم وتقديرهم اذا تمنى مع تقاليدهم وتعاون معهم ، وتمشيا مع تقاليد المجتمع يتحتم عليه القيام بواجباته نحو هذا المجتمع نظير انتمائه اليه . ولا بد من أن يمر الفرد بعدة صعوبات أثناء عملية التكيف هذه ، اذ أنه سوف يقابل

W. Galt, « The Principle of Cooperation in Behaviour », Quarterly Review of (١) Biology », Vol. 15, 1940, p.p. 406 — 410.

C. Buhler, « Spontaneous Reactions of Children in the First Two Years », Proceedings & Papers of the 9th International Congress of Psychology, 1929, p.p. 99 — 100.

L. Bender, « Genesis of Hostility in Children, American Journal of Psychology. (٣) Vol. 105, 1948, p.p. 241 — 245.

مواقف تضطره للصراع مع رغباته ونزعاته لحفظ حقوق الآخرين ، وانه اذا اعتدى على أحد فسوف يعتدى عليه ، واذا أخذ فانه لا بد أن يعطى ، وبالاختصار فانه سوف يجد أن حياته كلها جزء من حياة الآخرين ، وأن كل فرد في المجتمع مسئول عن الأفراد الآخرين حتى لقد قال « دستويفسكى » Dostoevski « ان كلامنا مسئول عن كل شيء لكل فرد في المجتمع » .

لقد بينت لنا التجارب والأبحاث العلمية والسيكلوجية أن التعاون صفة أصلية في الأحياء وانه بدونها لا يحدث توالد ولا تستمر الحياة ، فالتعاون والمحبة — اذن — ضرورتان للحياة لا تقلان في قيمتهما عن التنفس والغذاء ، وهنا يجيء دور التربية ، ان الفرد وهو في سن التكوين — يمضى الغالية الكبرى من ساعات أيامه في المدرسة لسنوات عدة ، وان هذه الفترات الطويلة من عمر الصغير يجب ألا تستخدم للتعليم فقط ، بل يجب أن تستخدم في توجيه وتنمية العلاقات الانسانية بين التلميذ وبين أفراد المجتمع في المدرسة ، فان تم هذا على وجه سليم فان التلميذ سوف يكون قيما يمكنه — بناء على هديها — أن يكون علاقاته مع الناس خارج المدرسة .

يقول الأستاذ « آشلي مونتاجيو »^(١) A. Montagu ان أهم واجبات المدرسة تنحصر في تعليم القراءة والكتابة والحساب أو كما يسميها الغريون ال Three R, s وهي « Reading, Writing & Arithmetic » ويرى أن تضاف R رابعة تمثل العلاقات الانسانية Human Relations فتصبح وظيفة المدرسة الأولى توجيه وتنمية العلاقات الانسانية بالإضافة الى تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وهذا لا يعنى أن الأطفال في المدرسة لا يتعلمون الآن شيئاً عن السلوك الاجتماعى أو بمعنى آخر لا تكون قيمهم عن العلاقات الانسانية في المدرسة . ان الطفل يتعلم في المدرسة كيف يتعامل مع الآخرين ولكن هذا التعلم يحدث بطريقة غير منظمة أو مدروسة . وذلك لأن الصغار يتعلمون كيف يسلكون مع الغير من الطريقة التى يتعامل بها الأفراد في مجتمعهم المدرسى ابتداء من ناظر المدرسة الى بوابها ، وانه دون أن نجحف بدور المجتمع المنزلى في تشكيل انماط العلاقات الانسانية للنشء ، فان المدرسة تعتبر أهم مكان لتشكيل هذه العلاقات

Ashley Montagu, on Being Human, p. 106. (١)

لذلك ينبغي أن توضع هذه العملية — أى عملية تشكيل العلاقات الانسانية للنشء — فى المرتبة الأولى من الأهمية فى وظائف المدرسة ، اذ لابد من تدريب النشء تدريجيا يكفل أن تخرج المدرسة أفراداً آدميين قبل كل شئ ، يتصفون بأنبى الصفات الانسانية وهى المحبة والتعاطف والتعاون ، ذلك لأنه لا يكفى أن تقع المدرسة بتزويد النشء بالعلم مهما بلغت قيمته ، فما لم يكن هذا العلم مقترنا بالانسانية الرفيعة ، وما لم يستعمل هذا العلم لخدمة الانسانية فى أنبل صورها فانه لا فائدة ترجى منه ، بل انه يصبح خطرا داهما على المجتمع .

ان التعلم عن طريق المثل الذى يحتذى به أسرع وأجدى من التعلم النظرى ، اذ أن التقليد العملى طريقة تعليمية أكثر مباشرة من ترجمة الكلمات الموسوعة أو المقروءة الى معان عملية ، فانه من السهل على المدرس أن يقول للتلميذ يجب أن تحب زملاءك وتتعاون معهم ، أو أن يعطيه درسا مكتوبا عن المحبة والتعاون ، الا أنه لن يكون للارشادات أو الدروس أثر مجد الا اذا كان سلوك المدرس مع من حوله يمثل المحبة والتعاون ، أما اذا كان سلوكه منافيا لما يدعو اليه فلا فائدة ترجى من وعظه وتعليماته . مما سبق يتضح أن قيمة المعلم — من حيث أثره على تشكيل أنماط السلوك الاجتماعى للنشء — كبيرة جدا . ان التلميذ يمضى أكثر النهار لأكثر أيام السنة فى صحبة المعلم ، وعلى ذلك فان المعلم يشغل أخطر وظيفة فى المجتمع ، فهو الذى يشكل عقول الصغار ويمدهم بالمواد الثقافية ويزودهم بالقيم والاتجاهات التى تشكل على هديها أنماط سلوكهم الاجتماعى . وبالاختصار فان المعلم هو الذى يعد مواطنى المستقبل .

ولما كانت للمعلم هذه الأهمية فان من واجبنا — كمجتمع عربى ناهض راغب فى المحافظة على السلام العالمى ، يدين بتقوية روابط المود والتعاون بينه وبين مختلف الشعوب للمحافظة على هذا السلام — من واجبنا أن ندقق فى اختيار المعنمين الصالحين للقيام بأخطر مهمة فى الدولة ، وهى تشكيل شخصيات النشء وهم فى مراحل حياتهم المرنة القابلة للتشكيل والتكيف . انه لا يكفى أن يكون معلم النشء مثقفا و متمكنا من مادته ومن طرق تدريسها ، ولا يكفى أن يكون ملما بالنظريات التربوية قديمها وحديثها ، ولا يكفى أن يكون نشيطا ومحبا للعمل ، ولا يكفى أن يكون دارسا لظروف الوطن العربى الاجتماعية والاقتصادية ولمشاكله فى شتى نواحي الحياة ، الى آخر ذلك من الصفات المرغوب فيها فى المعلم

في عالمنا العربي ، ذلك لأنه — قبل كل هذا — لا بد وأن يكون انسانا متسا
بالصفات الانسانية الرفيعة التي يتوجها الحب والتعاطف والتعاون .

فبالإضافة الى قيامه بتقديم العلم والمحبة للصغار وتثقيف عقولهم فإنه سوف
يكون المثل الذي يحتذى به في الطريقة التي يتعامل بها مع أفراد المجتمع المدرسي،
تلك الطريقة التي لا بد أن تكون مبنية على الحب والتعاون ؛ فاذا ظهر للصغار
أن مدرسهم الذي يعاملهم بحب وعطف والذي يتعاون معهم في ايجاد الطرق
والوسائل التي تجعل الدراسة مجدية ومحبوبة ، والذي يساعد التلميذ المتأخر حتى
يتقدم ويعاون التلميذ المتقدم فيزداد تقدما ، والذي يتعاون مع زملائه المدرسين
بروح طيبة تبغى الصالح العام ، ومع رؤسائه لنفس الغرض — اذا ظهر للصغار
ذلك فإنه بالتدريج وعن طريق الاعجاب سوف يكون هذا المعلم هو المثل الأعلى
لديهم فيقلدونه ، وهكذا سوف يتسم سلوكهم الاجتماعي بظاهرتي الحب
والتعاون .

لقد ألقى البحث التربوي خلال الأعوام العديدة الماضية الكثير من الأضواء
الكاشفة على السلوك الانساني وعمليات التعليم . ففي السنوات الأخيرة أجريت
عدة تجارب لتقييم المعلم كان ضمنها استفتاءات عديدة عملت في الولايات المتحدة
على آلاف التلاميذ بالمدارس تبحث عن أسباب اعجاب التلاميذ بالمدرسين وأسباب
نفورهم منهم . وقد دلت هذه الاستفتاءات على أن أكبر عدد من التلاميذ أبدى
الأسباب الآتية للاعجاب بالمدرس بالترتيب كالاتي :

١ — يتعاون في العمل المدرسي ويشرح الدروس بوضوح .

٢ — مبهج — سعيد — طيب — طروب .

٣ — انسان — صديق رقيق — « واحد منا » الخ ..

أما استفتاءات أسباب النفور فجاءت كما يأتي بالترتيب كذلك .

١ — مبط — كثير التأنيب — ساخر — سريع الغضب — غير متعاون في

العمل المدرسي .

٢ — متعال — متكبر — لا يعرفك خارج الفصل .

٣ — قاس جدا — يجعل الحياة تعسة .. الخ .

وبالنظر الى الصفات التي يستحسنها التلاميذ في مدرسيهم نجد أنها كلها صفات للسمات الشخصية للمدرس ، وأن هذه السمات تتميز بالانسانية الرفيعة كالعطف والصدقة والطيبة والبشاشة وغيرها ، وكلها أوجه مختلفة للمحبة والتعاون الانساني . هذا بينما نجد أن التلاميذ يتقرون من المدرس السريع الغضب الساخر المتعالي القاسى ، وكلها صفات لا تمت للانسانية الرفيعة بصلة . وهكذا يتضح أن السمات الانسانية للمدرس هي التي تقربه لقلوب النشء ، ومتى وصل المدرس الى قلوب التلاميذ فمن السهل عليه أن يصل الى عقولهم وتصبح مهمة التعليم والتعلم مهمة سهلة محببة .

ولم تفت هذه الحقيقة كتابنا وفلاسفتنا ومريينا المسلمين والعرب ، فقد خصوها بالاهتمام منذ أقدم العصور ، وان كتاباتهم تؤكد ضرورة اقامة أو اصر الود والتعاطف والتعاون والاحترام المتبادل بين المعلم وتلاميذه وبين الأستاذ ومريديه ، بل وبين الفرد ومن حوله من الناس سواء في بيته أو في المجتمع ، ولقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب الى بيان ما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات بالتفصيل ، فنجد مثلا أن عددا من كتب الغزالي — الامام الدينى المتصوف — تشمل أبوابا طويلة عن العلاقات التي يجب أن تقوم بين المعلم ومريديه وبين الأفراد بعضهم وبعض ، وقد وضح أن كل هذه العلاقات لا بد وأن تبنى على المحبة والاخلاص والأمانة والتعاون .

فان كان كتابنا القدامى قد بدأوا — منذ قرون مضت — يخصون هذا الموضوع بالاهتمام ، فحرى بنا — وقد هبت الشعوب العربية مناضلة من أجل قوميتها والدفاع عن حقوقها — أن تتبع خطوات من سبقونا من الحكماء والفلاسفة العرب والمسلمين ونؤكد ضرورة اعتبار العلاقات الانسانية من أهم الأمور التي يجب أن تولى عناية كبيرة في تربية النشء ، وذلك لما لهذه العلاقات

من خطورة في جميع الميادين الاجتماعية والدولية ، ونحن ان أكدنا اليوم ضرورة غرس روح التعاون في الصغار أثناء تربيتهم فانما تؤكد ضرورة العناية بعامل أساسي في بناء مجتمعا الاشتراكي الديموقراطي التعاوني . فان شب النشء وقد آمن بأن المحبة والتعاون هما أساس العلاقات الانسانية السليمة بين الأفراد فسوف يتكون في وطننا جيل مؤمن بهذه الظاهرة الاجتماعية التي هي أساس السلم وأساس النجاح والدعامة التي يمكن أن تقوم عليها العلاقات بيننا وبين اخواننا في مجتمعا الصغير ثم بيننا وبين اخواتنا في الوطن العربي بل بيننا وبين دول العالم جمعاء .